توظيف معطيات النظرية الفطرية في اكتساب اللغة في تعليم النحو العربي

دراسة في آليات المنهج والتطبيق

The Use the Data of the Innate Theory in the Acquisition of Language in the Teaching of Arabic Grammar: A Study in the Mechanisms of Curriculum and Application

أ.د. ناصر فرحان الحريّص

أ.د. مختار لزعر

قسم اللغة العربية وآدابها ،كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم

المملكة العربية السعودية

الملخص:

قلما نجد من أبناء العربية اليوم من لا يشكو من صعوبة تعلم مهارة تعلم النحو العربي وتعقيدها. ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك يعود إلى إشكالية وضع اللغة العربية الفصحى بالنسبة للمتكلمين باللغة العربية من حيث طبيعتها في المستوى اللغوي بالنسبة لهم. أهي تعد لغة أولى ؟ أم هي لغة ثانية؟ أم هي بين بين؟ إن حل هذه الإشكالية سيسهم إلى حد كبير في الشكل الذي سيقدم عليه القالب التعليمي والمهارة اللغوية عند تعلمها وتعليمها. فهناك فرق كبير بين الاكتساب والتعلم ودورهما في الشكل الذي تقدم عليه المهارة اللغوية في العملية التعليمية. وهنا، تأتي أهمية البحث الحالي في كونه يعالج تلك الإشكالية من خلال مهارة تعلم النحو العربي متبنيًا في سبيل تحقيق ذلك منهجيًا، فرضيات ومعطيات النظرية الفطرية التي عالجت إشكالية اكتساب اللغة ودرست البعد الفلسفي لها وأثر ذلك على أهم مكوناتها وهو النحو.وقد توصل البحث إلى أن أهم مكاسب تبني معطيات هذه النظرية هو المساعدة على حل الإشكاليتين الكامنتين في تعليم النحو العربي:

(1) إشكالية تحديد هل النحو العربي يقع ضمن حدود الاكتساب أو التعلم.

(2) إشكالية توظيف البعد الفلسفي في النظرة الفطرية نحو النحو عند تعليمه.

الكلمات المفتاحية:

النحو، الفطرة، الوظيفة، الاكتساب، التداولية، الفعل الكلامي.

Abstract

We seldom find the sons of the Arab today who do not complain about the difficulty of learning Arabic grammar and complexity. Perhaps one of the most important reasons for this is due to the problem of developing the standard Arabic language for Arabic speakers in terms of their linguistic level. Is it the first language? Or is it a second language? Or is it between? The solution to this problem will contribute to a large extent in the form that will provide the educational template and language skills when learned and taught. There is a significant difference between acquisition and learning and their role in the form in which language skill is offered in the learning process. Here, the importance of being in the current research addresses the problem through the skill of learning Arabic grammar in adopting order to achieve this systematic, the hypotheses and data of the innate theory, which dealt with the problem of language acquisition and examined the philosophical dimension and the impact on the most important components, which is Grammar. The research found that the most important gains to adopt the data of this theory is to help solve the problems involved in the teaching of Arabic grammar. The research found that the most important gains to adopt the data of this theory is to help solve the problems involved in the teaching of Arabic grammar.

(1) The problem of determining whether Arabic grammar is within the limits of the acquisition or learning.
(2) The problem of employing the philosophical dimension in the innate outlook towards grammar when teaching.

key words:
Grammar, instinct, function, acquisition, deliberation, verbal action.

1.المقدمة

إن المتتبع للطرق المتبعة في تعليم مقرر النحو في غالبية أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية يلحظ تعقيدًا يكمن في الازدواجية التي تجعل تعليم النحو يتراوح بين التقنين والتجريدفي مرجعيته المعرفية التي ينتمي إليها، والوصف المحدود الذي لا يتجاوز حدود السطح دون إعطاء أدنى التفاتة إلى طبيعة المتعلم وحقيقة أنه يتعلم ذلك النحو بتعقيداته وليس يكتسبه فطرة؛ وثمة فرق كبير بين التعلم والاكتساب في الحقل المعرفي اللساني اليوم. ففي الاكتساب تكون الملَكَة اللغوية التي يكتسبها الإنسان في لغته الأم هي الأقوى والأنجع، مقارنة مع باقي الملَكَات الأخرى، ولو في ظروف وشروط مماثلة للظروف والشروط التي اكتسب فيها الملَكَة الأولى. وبتعبير أدق، الاكتساب اللغوي هو عملية لا شعورية؛ أي: "تتم بطريقة طبيعية وتلقائية؛ لتنمية الكفاية التواصلية للمتكلم - السامع، دون حاجة إلى تعلم"(1).

وبناء على هذه الحقيقة العلمية، نستطيع أن نتصور حجم الخلل الذي يقع فيه معلم النحو العربي من حيث إنه يتصور أن المتلقي لهذا النحو هو مكتسب له بحكم أن اللغة العربية الفصحى-في خلفية المعلم الافتراضية- هي لغته الأم التي اكتسبها فطرة وملكة في محيط أسرته ومجتمعه وبيئته.بيد أن الأمر على خلاف ذلك تمامًا، فالمتعلم لم يمر في ملكته اللغوية الأولى بالمستوى الفصيح للعربية الذي يختلف في تركيبه النحوي وطريقة بنائه على مستوى الكلمة والجملة عن تجربته اللغوية الفطرية التي مر بها إبان تعرضه للهجته المحلية والتي اكتسبها من محيطه بشكل طبيعي وتلقائي.

ولمعالجة هذه الإشكالية من منظور علمي حديث، سيعمد البحث الحالي إلى تبني المناهج الحديثة التي عالجت اكتساب اللغة مركزا على النظرية الفطرية **Nativism**جاعلًا منها إطارًا منهجيًا أساسيًا له ومستفيدًا من معطيات النظريات الأخرى كالنظرية السلوكية **Behaviorism** والنظريات التفاعلية **Interactionist Theories**. يضاف إلى ذلك، أن البحث الحالي سيستفيد من البعد الفلسفي للغة الإنسانية في فهم طبيعة المقدرة اللغوية والتواصلية لمكتسب اللغة ومتعلمها؛ لخلق ترابطٍ بين التصور الفلسفي والواقع اللغوي، الأمر الذي به نصل إلى فهم عميق للنحو بوصفه مقدرة لغوية وتواصلية في الآن نفسه معتمدين في ذلك على معطيات النظرية التوليدية لنعوم تشومسكي وتطبيقاتهما على النحو العربي عند النحويين العرب المحدثين.

ومن خلال تبني هذا المنهج، يطمح البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- الاستفادة من النظريات اللسانية في اكتساب اللغة **Language Acquisition** في تعليم النحو العربي في أقسام اللغة العربية.
- توظيف مكتسبات ومعطيات النظرية الفطرية في تعليم النحو وتوضيح دوره الفاعل في الملكة اللغوية من خلال تفاعله وتداخله مع الأنساق اللغوية الأخرى.
- البناء على منهجية علمية في تناول تعليم النحو العربي من خلال تحديد مستوى اللغة العربية الفصحى في الاستخدام اللغوي بين أبناء العربية اليوم على نحو ما وضحنا في الحديث عن مشكلة البحث وأهميته.
- النجاح في تحقيق الهدف السابق، سيساعد على إعادة النظر في تعليم مهارات ومستويات اللغة العربية الأخرى.
- الإسهام في طرح تصورات عملية في تعليم النحو في تلازمه مع مقتضيات البعد الفلسفي للغة من خلال بيان وظيفة النحو في كونه يمثل المقدرتين اللغوية والتواصلية عند متكلم اللغة على النحو الذي كشفت عنه النظريات النحوية الحديثة كالتوليدية والوظيفية.
- تقديم بعض المقترحات يخص تعليم النحو العربي، وذلك اعتمادا على معطيات النظريات المعتمدة في منهج البحث التي -كما أسلفنا- تراعي الإطار الفلسفي للنظام اللغوي من جهة، ووظيفته الإبلاغية والتواصلية من جهة أخرى.

2.الدراسات السابقة

تتمركز معظم الدراسات السابقة حول إشكالية تعلم النحو العربي في أقسام اللغة العربية بالجامعات العربية حول التنظير البحت من غير استفادة حقيقة من معطيات النظريات اللسانية في اكتساب اللغة أو معطيات نظريات فلسفة اللغة وتوظيفها في الجانب التعليمي. قصارى ما نجد هو إما حديث في أسباب الضعف كما نجد في الكتاب الذي خرج عن ندوة ضعف الطلاب في اللغة العربية التي نظمتها جامعة الإمام عام 1416هـ/1996م، وإما دراسات تنظيرية وتطبيقية بعيدة عن تشخيص واقع تعليم النحو العربي لأبناء العربية اليوم على النحو الذي نحده في:

(أ) اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم ، محمد الأوراغي.

(ب) اللسانيات واللغة العربية: عبد القادر الفاسي الفهري.

(ج) قضايا في تعليم اللغة العربية وتدريسها: حسن عبد الباري عصر.

وإما دراسات تشخص واقع تعليم النحو وتقترح حلولًا بعيدة عن الحدود الفاصلة بين التعلم والاكتساب. ونذكر هنا أبرز تلك الدراسات:

(أ) تقويم مدونة النحو العربي، محمد بن تومي كراكبي، 2001.

(ب) النحو العربي وإشكاليات تدريسه، عمر لحسن، 2001.

ج) تأملات منهجية في تدريس النحو العربي، عدنان أجانا، 2015.

د) الاتجاه الوظيفي في تدريس النحو العربي، علية بيبية، 2009.

(ه) تعليم النحو، مازن المبارك، 2010

و) النحو العربي : تيسيره وتطويره،وطرق تدريسه، رباح اليمني مفتاح، 2006.

يفترق البحث المقترح عن الأبحاث السابقة في تبنيه منهجًا مختلفًا، وهو -كما وضحنا سابقًا- يعتمد على الاستفادة من توظيف معطيات النظريات اللسانية في اكتساب اللغة (النظرية الفطرية تحديدًا) في تعليم النحو العربي لأبناء العربية في أقسام اللغة العربية؛ وذلك قياسًا على نجاح توظيف معطيات تلك النظريات في تعليم النحو العربي لغير الناطقين بالعربية. والبحث الحالي يبحث في إشكالية مستوى الاستخدام والتصينف اللغوي للعربية الفصحى بالنسبة لأبنائها وعلاقة ذلك بالطريقة التي يدرس بها النحو العربي، الأمر الذي لم تتطرق له الأبحاث السابقة. أخيرًا، يوظف البحث الحالي نظريات فلسفة اللغة ليوضح طبيعة النحو في كونه جزءًا أساسًا في الملكة اللغوية والملكة التواصلية مستفيدًا في ذلك من نظرية النحو التوليدي، إحدى أبرز النظريات التي بنت فرضياتها على أسس النظرية الفطرية وأثبتت نجاعتها.

3. تعليم النحو العربي: المشكلة والأبعاد

إن الناظر إلى حال تعليم مقرر النحو في أقسام اللغة العربية بالمؤسسات الجامعية العربية، يجده يسير منذ زمن على وتيرة يغالب عليها طابع التلقين أكثر من طابع العقل والاستدلال وإدراك وظيفة النحو. ولعل إلقاء أدنى لفتة فيما احتوته مقررات النحو في تلك المؤسسات، يجدها لا تخرج عن المفاهيم النحوية التي يغلب عليها الطابع القواعدي التقعيدي المعياري لا الوظائفي السياقي المقامي الذي يعلي من شأن موقع المفهوم النحوي على حسب ما يتماشى مع منطق اللغة وذوقها ومستلزمات ما تستدعيه العلائق الإسنادية من بابها الوظيفي.

ولكي نكون منصفين في عرض الحالة المتعلقة بتدريس مقرر النحو على جميع المستويات نسرد هنا غالبية المفاهيم النحوية التي تقدّم إلى طلاب أقسام اللغة العربية، لننظر فيما بعد منزلة هذا النوع من التصور العلمي والمنهجي من حيث هل استطاع أن يعطي للحقل النحوي حقّه من حيث التصور والذوق والعقل والمنطق والمنهج والطريقة والوظيفة ما يتماشى مع طبيعة اللغة من جانبها الفطري الوجودي أم لا؟

عند رجوعنا إلى أهم الوحدات المفاهيمية والإجرائية الملازمة لمقرر النحو المقدم لطلاب البكالوريوس؛وجدناها في الغالب لم تخرج عن إطارها التقعيدي المعياري الذي همّه الوحيد هو تعريف المفهوم النحوي وبيان أنوعه أو شروطه التي يتوزع فيها داخل التراكيب (المثال من منظور التصور النحوي). ومن أهم هذه المفاهيم:

- باب أقسام الكلام، والعلامات الخاصة بكل قسم
- المعرب والمبني من الكلمات، العلامات الأصلية للإعراب
- المعرب بالعلامات الفرعية
- إعراب ما لا ينصرف، أعراب الأمثلة الخمسة، إعراب المضارع المعتل الآخر
- النكرة والمعرفة، أقسام المعارف
- باب المبتدأ والخبر، التعريف لكل منهما والأنواع
- حذف الخبر وصوره
- الأفعال الناسخة للابتداء ، كان وأخواتها
- أفعل المقاربة ؛ أقسامها وعملها
- باب إنّ وأخواتها
- لا العاملة عمل إنّ
- باب ظن وأخواتها
- باب أعلم وأرى وأخواتها
- الفاعل وأحكامه
- نائب الفاعل وأحكامه
- باب الاشتغال
- المتعدي واللازم
- التنازع+ المفعول المطلق
- المفعول له+ الاستثناء

- مفهوم الحال وأنواعه وأنماطه في اللغة العربية
- أحكام الحال في النحو مع التطبيق
- التمييز وأنواعه معه التطبيق
- الفرق بين الحال والتمييز
- حروف الجر وصورها مع معانيها داخل التراكيب
- الإضافة وصورها
- التطبيق على القرآن والحديث والشعر والنثر
- المصادر وعملها
- المشتقات وعملها
- أسلوب التعجب والمدح والذم
- التوابع
- أسلوب النداء والاستغاثة والندبة والترخيم
- المنصوب على التخصيص-التحذير والإغراء-
- أسماء الأفعال
- إعراب الفعل المضارع ، رفعه ونصبه وجزمه
- العدد وأحكامه

هذه، إذاً، غالبية المفاهيم النحوية المتبعة في مقررات النحو في أقسام اللغة العربية وآدابها والتي ظلت تتعامل مع هذه المفاهيم وفق أهداف، منها ما كان منصبًا أساسًا في الجانب المنهجي والآخر في الجانب الإجرائي بله الجانب الوصفي الذي يتماشى مع المفهوم النحوي على حسب الموقع الإعرابي الشكلي الذي ينصاع إلى الضابط القواعدي لا الوظائفي.

لقد أدى هذا النهج في تعليم النحو إلى جعل وظيفة تعليم النحو تركز **على التعلم عن نظام اللغة والتعليم عنه وليس على تعلم هذا النظام وتعليمه**، وكأن الهدف هو تخريج مختصين وباحثين لغويين لا مطبقين لمهارات اللغة. وقد قاد هذا النهج أيضًا إلى عدم مراعاة توظيف البعد الفلسفي للنحو مما جعل الفضاء الاستدلالي للنمط الخطابي النحوي يعاني من العتمة والانغلاق التي كان من إفرازاتهما الأسلوب الجاف المتعب الذي حال دون تمكن المتعلم إلى فهم وظيفة هذا البعد ودوره في فهم طبيعة النحو الفكرية والوظيفية بل والإبداعية. لقد تجاوزت النظرية الفطرية في اكتساب اللغة، كما سنرى في المبحث الموالي، النظرة التقليدية المتوارثة عن (النحو) التي أفرزت التصور المشار إليه أعلاه عندما نظرت إلى النحو على أنه

وصف شامل للغة في جميع مستوياتها: الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، وليس تحليلا للجملة ومكوناتها الكلامية وحسب. فالنحو في فلسفة النظرية الفطرية في اكتساب اللغة، كما سنرى في المبحث القادم، هو "الكفاية اللغوية" التي هي في حقيقة الأمر المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التي لا تشمل النحو بالمفهوم التعليمي بل تتضمن التداخلات الوجاهية التي بدورها تجعل النحو يتفاعل مع الأنساق اللغوية والمعرفية الأخرى في الدماغ في سبيل إنتاج اللغة.

4.النظرية الفطرية في السياق التاريخي

4-1. النظرية البنائية والاكتساب اللغوي

تعود جذور النظرية الفطرية إلى تلكم النظرية التي ابتدعها سقراط وتبناها تلميذه أفلاطون فيما عرف في تاريخ الفلسفة بالنظرية البنائية(**Constructivism**)، التي، بوصفها موقفًا فلسفيًا محضًا، ترى أنّ ما يدعى في السياق الفلسفي الوجودي بالحقيقة إنْ هو إلا تصور ذهني عند الوجود الإنساني بحكم أنّ يعتبر أنّه هو الذي أوجد الحقيقية ومن ثم جاءت البنائية تحط رحالها على واقع الظواهر منطلقة من أنّ هناك دوافع في الأصل هي ملازمة للفطرة القائمة في الإنسان والتي عن طريقها يستطيع الإنسان أن يفهم ويدرك ما هو موجود في العالم من حوله. بل أبعد من ذلك أنّ البنائية-على حد تعبير قلاسر سفيلد(**Glasersfeld**)- عبارة عن نظرية معرفية تولي اهتمامها على دور التعلم في البناء الشخصي للمعرفة(2) ؛ الأمر الذي أدى فيما بعد أن تبنى هذه النظرية البنائية عدة منظرين في مجال علم النفس وغيرها من مثل: أوزوبل (**Ausubel**) وبياجيه (**Piaget**) وآخرين كُثُر(3).

وبحكم أنّ النظريات البنائية عند المشتغلين في علم النفس بعامة وحقل التعليم على وجه أخص، لها عدة جهات من حيث التصور والوظيفية فهي تحتوي على الافتراضات التي تتوزع على خمسة مبادئ وهي: التكيّف والتمثيل أو الاستيعاب والمواءمة(التضمين)والتوازن وأخيرا التنظيم(4). وتحتوي على المنهج الذي بدوره يتوزع من حيث الإجراء على أربعة جهات وهي: الأهداف والمحتوى واستراتيجيات التدريس والتقويم(5) ،كما أنّها تحتوي على الإطار التطبيقي في فعل التدريس الذي يتجه مباشرة إلى تنوع الفعل التعليمي البيداغوجي القائم بين المعلم والمتعلم وهو على أنواع من أهمها: استراتيجيات حل المشكلات(المهام، المشاركة،ومجموعات تعاونية)،واستراتيجية دورة التعلم (الاستكشاف الإبداع المفاهيمي، والاتساع المفاهيمي(6).

ولعل ما يخدم تصور إشكالية البحث من خلال صور النظرية البنائية التي أشرنا إليها آنفًا هو الأهداف والمحتوى واستراتيجيات التدريس والتقويم والمهم والمشاركة ومجموعات تعاونية؛ هذه الإجراءات المفاهيمية نعتقد أنّ لها ما يبررها في تعليم النحو العربي بحكم، كما وضحنا في المبحث 3، أنّها تسير وفق نمط قواعدي واحد..

إن الحديث عن النظريات البنائية في تلازمها مع شرط الاكتساب اللغوي، يجرنا للحديث عن النظرية السلوكية في تعليم اللغة؛ لأنها، أي الأخيرة، خطفت الاهتمام من النظرية البنائية، الصورة الأولى كما أسلفنا للنظرية الفطرية؛ وذلك لشيوع وانتشار مفاهيم علم النفس السلوكي في بدايات القرن الميلادي الماضي، الأمر الذي جعل غالبية من يشتغلون في مجال التعليم والتربية يرجعون قضايا الاكتساب والتعلم إلى الإطار السيكولوجي الذي يمثل عندها الحجر الأساس في الفعل التعليمي حتى منتصف القرن الماضي كما سيوضح لاحقًا. فما النظرية السلوكية؟ وما علاقتها بقضايا تعلم اللغة واكتسابها؟

2-4.النظرية السلوكية والاكتساب اللغوي

بزغت النظرية السلوكية**(Behaviorism)** إلى الوجود اللساني الأمريكي عن طريق الباحث اللساني بلومفيلد الذي راح يتزعمها ويتبنى طروحاتها في غالبية الدراسات اللغوية التي جاء بها لاسيما في كتابه الأول المعروف اللغة (**Language**) في سنة 1933، وهو التصور الذي هيّأ، في رأي أحمد مومن، "للدراسات الأمريكية منهجيا لقبول مبدأ التوأمة بين علم النفس السلوكي واللسانيات ، وهي الجهود التي قام بها بلومفيلد من أهل هذا الغرض؛ فبعد أن استلهم المعطيات النظرية لعلم النفس السلوكي الذي كان سائدا آنذاك في مجالات العطاء الفكري الإنساني، أسقطها على المنهج الوصفي اللساني، مما أدى إلى ظهور نظرية لسانية متكاملة، ولذلك ينظر إليها على أنّها نظرية آلية للغة. وتعرّف بأنّها نظرية نفسية أثّرت بشكل حاسم في السلوكية المعاصرة؛ حيث يكون هناك سلوك يبنى على تعزيزات، أي هناك ما يسمى بالإجراء والإشراط الإجرائي والتعزيز والعقاب"(7).

إنّ الاتجاه السلوكي النفسي استطاع أن يؤسس نظرة جديدة للدرس اللغوي واللساني على حسب ما يقتضيه شرط الوصف والإجراء(8). ولكن لسائل أن يسأل هل يمكن استثمار الاتجاه الوصفي السلوكي في تعليم النحو؟

إن إلقاء نظرة على تعريف الاتجاه السلوكي للغة، يجعل من الصعب استثمار هذا الاتجاه في تعليم النحو؛ فاللغة من وجهة نظر السلوكيين تُعرف بأنها " مجموعة عادات صوتية يكفيها حافز البيئة، فلا تتعدى برأيهم، كونها شكلًا من أشكال الحافز"(9)، والاستجابة لهذا الحافز تتكون عندما يسمع متكلم اللغة "جملة معينة أو يشعر بشعور معين، فتحصل عنده استجابة كلامية من دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأي شكل من أشكال التفكير. فالاستجابة الكلامية مرتبطة بصورة مباشرة بالحافز، ولا تتطلب تدخل الأفكار أو القواعد النحوية". وفي المقابل فإن اللغة عند الفطريين كما سنرى عند تشومسكي مثلًا- عملية إبداعية، وذلك أنّ كل متكلم بلغة هي لغته الأم يستطيع أن يركب منها ما لا نهاية لعدده من العبارات، والجمل، دون أن تكون هذه الجمل قد ذكرتْ له من قبل، ويستطيع كل متكلم بلغة من اللغات أنْ يفهم أيضا ما لا يتناهى من العبارات، والجمل، بما في ذلك تلك التي لم يسمع بها من قبل. وهذا لا ينفي أنّ اللغة

بنْية، لكنها في رأي أصحاب النظرة الفطرية بنية مفتوحة(endedless). فيما يلي، عرض لرؤية النظرية الفطرية حول تفسير الاكتساب اللغوي.

3-4.النظرية الفطرية: العودة وتغيير النظرة للاكتساب اللغوي

مع عودة النظرية الفطرية إلى الدرس اللغوي بفضل آراء تشومسكي التي بثها في مقاله الذي نشر في مجلة اللغة (1959) وفيه قوض دعائم النظرية السلوكية وطعن في مفهوم العادة نفسه. وبيّن أنّ مفهومي المثير والاستجابة هما مفهومان أجوفان؛ فنحن لا نستعمل اللغة استجابة لمثيرٍ سلوكي محددٍ وواضح.وإنما ما يتعلّم بالفعل هو قواعد تحويلية تعطي القدرة للمتحدث على توليد أنواع يصعب حصرها من الجمل الجديدة ذات الطابع النحوي. أي أن ما يُتَعَلّمُ ليس سلسلة من الكلمات في حد ذاتها، وإنما يتعلمها الفرد بوصفها مفاهيم تمثل فئة بعينها تنتمي إليها هذه المفاهيم.

وقد بيّن تشومسكي، بفضل هذا الفهم العقلاني للظاهرة اللغوية، "كيف أن المدرسة السلوكية لا تستطيع أن توضح لنا حقيقة السلوك اللغوي البشري؛ لأنها تسقط من حساباتها النظرية اعتبار الخصوصية اللغوية عند البشر والمتمثلة في كون اللغة البشرية نشاطًا ذهنيًا وعقليًا بامتياز مرتبطًا بالعقل والإرادة"(10).

وقد استدل تشومسكي(11) على نظرية الفطرة اللغوية بالطريقة التي يتعلم بها الطفل اللغة، وجعلها حجة يستند إليها لدحض آراء السلوكيين. وفي هذا الصدد يقول: "واضح أن الطفل الذي اكتسب لغة ما قد طور في ذاته تصوراً داخلياً لتنظيم من القواعد ينصّ على كيفية تركيب الجمل واستعمالها وتفهمها [...] فيمكن القول إن الطفل قد نمى في ذاته قواعد توليدية، وقد قام بعمله هذا من خلال ملاحظة المعطيات اللغوية الأولية التي يتعرض لها". فتعلم الطفل للغة، إذن، لا يشترط فيه أن يكون الذكاء عاملاً من عوامله، فالجميع يتعلم التكلم بلغته الأُم بشكل فطري. فإن حبسه حابس عن تعلمها بشكل صحيح، فلابد من أن يعود إلى عيب منعه من إنجاز أعمال ذهنية تعينه على استبطان القواعد اللغوية التي - كما يعتقد تشومسكي- يمتلكها الطفل في ذهنه خلقة على شكل كليات لغوية عامة تشترك بها اللغات الإنسانية. والطفل في ضوء النظرية التوليدية، ليس حاسوباً يكتفي بمعلوماته اللغوية، بل إن الفطرة اللغوية الموجودة عنده تساعده على إيداع غير محدود لصور لغوية من قواعد محدودة(12) ؛ فالطفل يبدأ في سنّ معينة (سنة أو سنتين أو ثلاث) إنتاج جمل، وما أن يكبر حتى يصبح في (الثامنة مثلاً) من عمره،

يكون قادراً على أن يعبر عما في نفسه من معانٍ مختلفة بجمل كثيرة لم يكن قد سمعها من قبل، كما أنه يكون قادراً على التمييز الجمل السليمة من غير السليمة، ويأتي إلى المدرسة؛ كي يتعلم القراءة والكتابة ، وليس ليكون جملاً. إذن، فالطفل لا يكتسب اللغة ويستعملها فحسب، بل يكتشف في الوقت نفسه أن الكلام هو حقيقة قائمة بذاتها، كما يمتلك المقدرة التي تساعد في عملية التواصل اللغوي مع أبناء مجتمعه(13).

فاللغة، إذًا، عند تشومسكي عبارة عن ملكة فطرية تولد مع الإنسان؛حيث تتجلى ميدانيا في تلكم القدرة المبثوثة في كل ناطق باللغة أو لسان من الألسن، على فهم وإدراك وبناء ما لا حصر له من الجمل غير المتناهية، وذلك من خلال نسق صوري الذي يشكل بحق ذلكم النظام الإدراكي للجانب العقلي. هذا النسق المتماسك والمحدّد وراثيا على حسب طبيعة الوجود الإنساني، قوامه جملة من المبادئ الثابتة والأنظمة العامة يسميها تشومسكي في كثير من المقامات بـ: الكليات النحوية؛ وهي الكليات التي يعتقد أنّها قادرة على التحكم في جميع اللغات البشرية؛ الأمر الذي أدى بهذه الكليات إلى تشكل موضوع(النحو الكلي) الذي يهتم أساسا بتفسير الحالة الأولى السابقة على كل تجربة بالنسبة لتلكم الملكة التي ينماز بها المتكلم الناطق باللغة، دون أن ينسى في مقامه هذا كيفية اشتقاق اللغات المخصوصة من المبادئ العامة عن طريق فعل المتغيرات اللغوية الملازمة لها والتي تستطيع في الوقت نفسه أن تتخذ أوضاعا مختلفة ومتباينة لكي تولّد القواعد الخاصة بكل لغة(14).

4-3-1.الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي (الإنجاز):

ترتكز التصورات الفطرية عن النظام اللغوي، في نموذجه التوليدي، على النظر إلى اللغة بوصفها بنية داخلية، وباعتبارها عملا منجزًا من خلال مفهومي الكفاية اللغوية Linguistic Competence، والأداء الكلامي Performance. يقوم مفهوم الكفاية اللغوية على الفلسفة التالية: فكرة مفادها أن كل إنسان يملك معرفة ضمنية بقواعد لغته، وهي- أي تلك المعرفة الضمنية- بمثابة ملكة فطرية لا شعورية تجعله يعبر بلغته التي اكتسبها من محيطه اللغوي تعبيرًا يمكنه من فهم عدد غير متناه من جمل هذه اللغة وصياغته، ولو لم يسبق له سماعه من قبل. يتم للإنسان ذلك، وفقَ قواعد معينة يكتسبها فطرة ضمن اكتسابه للغته الأم(15). ويتوصل إلى هذه الكفاية اللغوية عبر ما سماه تشومسكي بـ"الحدس اللغوي" الذي به يؤلف متكلم اللغة مجموعة من القوانين التي بها يستطيع الحكم بصحة الجمل النحوية من عدمها (تشومسكي1987). والحدس اللغوي عند تشومسكي جزء من الكفاية اللغوية المثيرة الاهتمام، وتكمن أهميته في تمكين الباحث اللساني من "ملاحظة المسائل اللغوية المثيرة الاهتمام، واستنباط القوانين اللغوية الكامنة ضمن الكفاية اللغوية"(16).

وتشومسكي في مفهوم الكفاية اللغوية يشير ضمنًا إلى مفهوم "اللغة الداخلية"(17) التي تتمثل عنده في فكرة البنية في عقل المتكلم، غير أن هذه الكفاية اللغوية، عنده، ليست مقدرة تفسيرية بقدر ما هي مقدرة توليدية؛ لذلك كانت الفكرة الأساسية التي توجّه المنهج التوليدي هي سمة الإنتاجية في اللغة التي بمقتضاها يستطيع المتكلم أن ينتج جملا غير محدودة من وسائل محدودة، وأن يفهم جملا جديدة غير متناهية لم يسبق له أن سمعها من قبل، وأن يميز بين الجمل النحوية وغير النحوية(18).

أما مفهوم الأداء الكلامي Performance، المقابل للكلام عند دي سوسير، فهو الاستعمال الفعلي للكفاية اللغوية، أي أن الأداء هو التنفيذ العملي للكفاية اللغوية التي تقوده ضمنيًا(19). وذلك لأنه "في الأداء يعود متكلم اللغة بصورة طبيعية إلى القواعد الكامنة ضمن كفايته اللغوية، كلما استعمل اللغة في مختلف ظروف التكلم"(20). غير أن الأداء قد لا يعكس كامل الكفاية اللغوية؛ إذ قد توجهه ظروف وعوامل غير لغوية، من مثل المقام والظروف التي ينجز فيها القول، والحالة النفسية للمتكلم وما يعتريه من نسيان وإعياء، وكذلك التفاوت الحاصل في المستوى الثقافي للأفراد(21).

وتركز النظرية التوليدية على الكفاية اللغوية في سبيل المعرفة الدقيقة بالأداء الكلامي، لأنها – كما ذكرنا آنفًا- هي النظام الضمني الذي يسير عليه الأداء ويتبعه المتكلم في أداء قواعد لغته. ومن هنا ينبغي أن يركز الدرس اللساني على "الكفاية اللغوية بالذات، وليس على المظاهر الكلامية التي لا تعدو كونها انعكاس هذه الكفاية. ولا بد [للساني] من أن يتقبل التجريد بالنسبة إلى معطيات الأداء الكلامي عندما يبغي دراسة آلية اللغة التي تتيح للإنسان تكلم لغته فيستثني بالنتيجة المظاهر غير اللغوية والمرافقة هذا الأداء"(22).

4-3-2.النظرية الفطرية وإشكالية اكتساب وتعليم النحو

لقد قدمت النظرية الفطرية استراتيجية تعليمية تفرق بها بين الكيفية التي ينبغي أن تتبع في تعليم النحو عندما يكون نحو اللغة الأولى (الأم) أو عندما يكون نحو اللغة الثانية. أي عندما يكون النحو نحوًا مكتسبًا أو متعلمًا وفق التفريق المشار إليه آنفًا بين عمليتي التعلم والاكتساب في حديثنا عن الإشكالية الأولى، أعني إشكالية تحديد هل النحو العربي يقع ضمن حدود الاكتساب أو التعلم؟ في هذا الصدد ترى النظرية الفطرية في نموذجها التوليدي أنه في اكتساب نحو اللغة الأولى، يحتاج المتعلم أن يعلم عن خصائص الملكة الفطرية من خلال تعرفه على أبعاد المقدرة اللغوية التي يملكها ومنها تمكن معرفته الضمنية بنحو لغته. و لكن في المقابل، نجد أن في علمية تعلم نحو اللغة الثانية، يحتاج المتعلم أن يتعرف على حقيقة هذه الملكة

وكيفية تطوعيها للنحو الجديد، وهنا يأتي دور المدخلات اللغوية من تلك اللغة في تهيئة الملكة في استيعاب هذا النحو الجديد وتكييفه ليكون محوسبًا في الملكة شأنه في ذلك شأن نحو اللغة الأولى. وترتكز هذه الرؤية على فرضيتين غاية في الأهمية(23):

(1)النحو نسق ونظام كامل perfect system ذو تصميم أمثل optimal design؛

(2) جهاز اللغة مصمم بشكل فطري لكي تبلغه الأنساق الخارجية من أي لغة كانت مما يعني أن أنحاء اللغات الطبيعية تتناسب بشكل مثالي والأنساق الذهنية الأخرى التي تتفاعل معها، وخاصة أنظمة الفكر والنطق.

وحول الإشكالية الثانية: **إشكالية توظيف البعد الفلسفي للنحو**، فإن تبني النظرية الفطرية في نموذجها التوليدي يسهم في تجاوز النظرة التقليدية المتوارثة عن (النحو) والنظر إلى أن النحو في حقيقته هو اللغة، أي المقدرة اللغوية التي هي، كما أسلفنا، عملية إبداع تحدِّد أطرها مجموعُ القواعد الفطرية المختزنة في الكفاية اللغوية لدى متكلم اللغة الذي على الرغم من محدودية خبرته مع المعطيات اللغوية لعملية الكلام، لديه مقدرة لغوية فطرية كاملة لنظام لغته الأم. وهذه المقدرة الإبداعية لمتكلم اللغة المثالي هي التي تمكنه من النظام النحوي للغته. ذلك النظام ليس النحو المعياري بمفهومه التعليمي التقليدي، ولكنه تلك المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التي تتميز بخاصية الخلق والإبداع وتتفاعل فيها المكونات الصوتية والدلالية في سبيل إنتاج ما لا يحد من الجمل وفهمه، حتى وإنْ كانت جديدة لم تُسمع من قبل. وعلى أساس هذا التفاعل بين النحو والمظهر الإبداعي للغة، أصبح تعريف النحو تلك المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التي يكتسبها المتكلم المثالي بوصفها مكونًا أساسيًا من مكونات النحو الكلي(24).

3-3-4.النحو العربي والنموذج التوليدي للنظرية الفطرية

إلى جانب تقديم نماذج صورية واضحة للغة الإنسانية، يهتم النحو التوليدي منذ بداية ظهوره بتقديم تفسير لإشكالية اكتساب وتعلم اللغات، وكان السؤال الذي أرقت إجابته هذه النظرية هو كيف يصل متكلم لغة إلى اكتساب ما يكتسبه من معرفة لغته؛ إذا ما عرفنا أن دور التجربة الخارجية في محيطه اللغوي في تشكيل هذه المعرفة محدودٌ جدًا ؟

وقبل تقديم مقترح لتعليم النحو العربي وفق النظرية الفطريةفي ضوء مبادئ النظرية التوليدية، ينبغي بداية أن نفهم كيفية اكتساب الطفل للغة. يرى تشومسكي (1975) أن النمو اللغوي عند الطفل، مهما كانت لغته، يعني:

أ. أن الطفل يولد وهو مزود بجهاز اكتساب اللغة Linguistic Acquisition Device يمكنه من استنباط قواعد لغته الخاصة به من استعمال المحيط الآني للغة. وبتعبير أبسط: يولد الطفل وهو مزود بيولوجيًا بملكة اللغة التي هي هبة موروثة فطرياً, تنمو عنده من خلال اتساع خبرته اللغوية.

ب- أن هذا الجهاز اللغوي الفطري مزود بقواعد كلية وعامة صالحة لتعلم أي لغة(25) ، وعمل الطفل المتميز هو تحديد خصائص اللغة التي يتعرض لها(وهي غالبًا لغته الأم/ لغة المحيط). فالطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء، بل يولد ولديه قدرة فطرية على تعلم أي لغة من لغات العالم مهما كان مستوى ذكائه؛ إذ لا علاقة بين الذكاء وعملية الاكتساب اللغوي. فالمبدأ العام في الاكتساب اللغوي، وفقًا للنظرية التوليدية، ينطلق من أن النظام اللغوي مزود بمقدرة نحوية فطرية لديها القدرة على التمييز بين ما يصحّ وما لا يصحّ من التراكيب والجمل من خلال معرفة المتكلم المثالي الضمنية بقواعد لغته، وهي قدرة إبداعية Creativity متجددة فيها سمة الإنتاجية التي لا تحد، على الرغم من أنها من قواعد محدودة.

فالخطوة الأولى لدراسة نحو أي لغة يجب أن يبنى على افتراض مبدأ الفطرة اللغوية، وأن يشعر متعلم هذا النحو بوجود هذه الفطرة، وما يترتب على وجودها من القواعد الكلية والسمة الإبداعية للغة، وكذلك على وجود الكفاية اللغوية التي بها يكتسب ابن اللغة غريزًا معرفة ضمنية بقواعد لغته. وعندما نفعل ذلك، نحن نزرع جانبًا كبيرا من التهيئة النفسية والتفاؤل في نفس المتعلم؛ تجعله يقبل على تعلم وتذوق لغته؛ لأنها نظام وبنية داخلية في عقله يجب عليه سبر أغوارها.

ينبغي أن يُنظر إلى النحو على أنه وصف شامل للغة في جميع جوانبها: الصوتي والنحوي والدلالي، وليس تحليلا للجملة فقط. فالكفاية اللغوية المسيرةُ لنظامية اللغةِ ما هي إلا المعرفة الضمنية بالقواعد التوليدية التي لا تشمل النحو فحسب بل يشاركه الصوت والدلالة. كما ينبغي، أيضًا، أن تُغير النظرة إلى النحو من علم قواعدي معياري، إلى اعتباره ملكة إبداعيةتقوم على عمليات محدودة تولد جملاً غير محدودة، كما هو حال اللغة التي تنتج جملاً غير محدودة من أصوات محدودة. لكن هذه الملكة يجب أن تستغل من البداية؛ لأنها ذات "إمكانيات

انتقائية محدودة تكون مفتوحة في المرحلة الأولى من مراحل اكتساب اللغة، أو تعلمها، ثم يقع إغلاقها أو تثبيتها في مرحله نضوج الملكة الخاصة الموسَّطة التي تكفيها التجربة باستغلال المؤهلات الفطرية اللغوية منها والمعرفية"(26).

ونحن عندما نستطيع أن نؤسس لهذه المبادئ في ذهن المتعلم، نستطيع حينها ترقية فطريّته بدرس النظام اللغوي من ناحية معرفية إدراكية, ومن ناحية استعمالية تنمو بالسماع، وممارسة الكلام والتعوُّد على صياغته بصوره المختلفة من حديث وحوار وخطابة وإلقاء وكتابة؛ لكي يكتسب ما يملأ به هذه الفطرة اللغوية؛ فيزداد النمو الداخلي التنظيمي للقواعد الكلية في ذهنه، ويصبح قادرًا بمعرفته الضمنية للغته على اختيار ما يتلاءم ونظامَ لغته(27).. عند ذلك فقط نستطيع أن نمكنه من الاستخدام الواعي لمبادئ النحو في "مواقف جديدة من الصعب التنبؤ بها أو حصرها، وهنا يمكن القياس والتحويل والابتكار"(28) ، كما نمكنه أيضًا من تقوية حدسه اللغوي فيصبح قادرًا أكثر "على أن يدلي بمعلومات حول مجموعة من الكلمات المتعاقبة من حيث هي تؤلف جملة صحيحة لغويًا أو جملة منحرفة عن قواعد اللغة"(29).

وأخيرًا، علينا أن نقدم النحو للمتعلم (عبر تدريبات لغوية) في صورة نظام داخلي يتألف من عمليات عميقة وأخرى سطحية، لا تفهم الثانية إلا في ضوء الأولى، ولا تتم الثانية إلا بعد عمليات أدنوية صغرى ذات نسق حاسوبي مستفيدين في ذلك من الفرضيات الحديثة للنظرية التوليدية في نموذجها الأدنوي (برنامج الحد الأدنى) الذي قدم مقترحات وأفكارًا لآلية عمل النظام اللغوي في الذهن وتعالقه مع الأنظمة المعرفية الأخرى. ومن أبرز التجديدات التي جاءت بها المقاربة الأدنوية أن **النحو** بوصفه نظامًا يتكون من مكونين هما المعجم Lexicon والنسق الحاسوبي Computation(30).

5.الخاتمة

لقد حاول البحث أن يقدم تصورًا ومقترحًا يوضح من خلاله أن تبني فرضيات وأسس النظرية الفطرية يقدم حلولًا للإشكاليتين الكامنتين في تعليم النحو العربي:

(1) إشكالية تحديد هل النحو العربي، بالنسبة لمتلقيه، يقع ضمن حدود الاكتساب أو التعلم.

(2) إشكالية غياب توظيف البعد الفلسفي عند تعليم النحو.

وفي تلك الحلول تقويض للنظرة التقليدية المتوارثة عن (النحو) بوصفه قواعد معيارية جامدة،واستبدالها بنظرة جديدة تقوم على التقعيد العلمي والبعد المعرفي. قوام هذا التقعيد وذلك البعد، ينشأ من تفسير النحو بأنه المقدرة اللغوية، التي هي في حقيقتها، عملية إبداع

تحدِّد أطرها مجموعُ القواعد الفطرية المختزنة في الكفاءة اللغوية لدى متكلم اللغة. تلك المقدرة ذات طابع فطري يستمد نظامَه الإنتاجي من القوة التوليدية لنظام ملكة اللغة. أخيرًا، إن تبني النظرة الفطرية في تعليم النحو يساعد، معرفيًا، على فهم الضرورة البيولوجية للمعرفة في كونها فطرية؛ لأن اللغة، التي يولدها النحو، هي المصدر الأساسي لكيفية اكتساب الكائن البشري المعرفة.

الهوامش :

-(أوكان 2005: 68)

[2]- اللزام 2001: 18

[3]- صبري وتاج الدين 2000: 78

[4]- غنيم 1973: 132؛ عبدالله 1991: 50- 51

[5]- حسن وزيتون 1992: 79-82

[6]- المرجع نفسه:99-101

[7]-2005: 194

[8]- في هذا الإطار المتعلق بصور وأشكال الممارسة للاتجاه الوصفي من منظور النظرية السلوكية في السياق اللساني والتعليمي يمكن العودة إلى : صالح بلعيد (1983: 22) دروس في اللسانيات التطبيقية، ومحمد مصطفى زيدان (1983: 93): نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، وأحمد حساني (2000: 56): دراسات في اللسانيات التطبيقية- حقل تعليمية اللغات، وصالح عبد العزيز وعبد العزيز عبد المجيد (1968: 185): التربية وطرق التدريس، وغيرها من المراجع التي تحدثت عن هذا الإطار.

[9]- زكريا 1983: 73

[10]- غلفان 2010: 10

[1]1-1965: 25

[12]- ينظر حول شرح نظرية الفطرة اللغوية، زكريا 1986: 76؛والتميمي2003: 23

[13]- تشومسكي 1965: 25؛ وينظر حول شرح رؤية تشومسكي في اكتساب الطفل للغة- عمايرة 1984: 55؛ زكريا 1986: 48؛ ينظر التميمي2003: 23

[14]- ينظر تشومسكي 1993،تر: م. فتيح

[15]- انظر على سبيل المثال تشومسكي 1968: 106

[16]- زكريا 1986: 38

[17]اللغة الداخلية I-Language مصطلح آخر جاء به تشومسكي ليؤكد على فكرة المفكر يسبرسن Jesperson في أن هناك فكرة ما عن البنية في عقل المتكلم توجهه في صياغة جمله هو، وهي عبارة عن بنية داخلية تشكل عنصرا من عناصر عقل الشخص الذي يتكلم اللغة، يكتسبه المتعلم ويستخدمه المتكلم- المستمع المثالي the speaker-hearer وهي مكون أساس من النحو الكلي Universal Grammar. في المقابل يطلق تشومسكي مصطلح اللغة الخارجية E-Language على اللغة التي يتحدث بها الشخص، أي "اللسان" في مصطلحات دي سوسير (ينظر تشومسكي 1993: 80-81، ترجمة م. فتيح).

[18]- ينظر علي 2009

[19]- تشومسكي 1967: 126

[20]- زكريا 1986: 33

[21]- تشومسكي 1970: 13

[22]- زكريا 1986: 36

[23]- تشومسكي 1995، 2001

[24]- ينظر على سبيل المثال 1967: 106

[25]وقد ساعد هذا الافتراض بوجود نظام لغوي متكامل، مزود بقواعد نحوية عامة، ويولد فطريًا مع الطفل- قد ساعد على فهم عملية اكتساب اللغة الأولى، وسهل كثيرا من تعليم اللغات الأجنبية، وربط ربطًا وثيقًا بين اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية.

[26]- الفاسي الفهري 1998: 11

[27]- العايد 2007

[28]- البار 2011

[29]- زكريا 1983: 157

[30]- ينظر تشومسكي 1995: الفصل3.